الكآبة حقد حالم ... مفارقة أنطولوجية ومساءلة سوداوية
كوجيتو المعاناة "أنا أعاني إذن أنا موجود".إميل ميهاي سيوران نموذجا

Melancholy is the hatred of a dreamer ... an ontological paradox and a melancholic questioning Cogito suffering "I suffer, therefore I exist" Emile Mihai Cioran

د. بوزيدي مسعودة *

[1] مخبر الفلسفة وتاريخها، جامعة وهران 2. الجزائر، bouzidihani14@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/08/25 **تاريخ القبول: 2022/03/11** **تاريخ النشر: 2022/03/31**

الملخص

نحاول من خلال هذه الورقة البحثية المختصرة أن نلم بمختلف أفكار الفيلسوف العدمي المتشائم إميل ميهاي سيوران وتأثره بشتى أفكار الفلاسفة نيتشه وشوبنهاور. فقد كان سيوران من معتنقي التوجه الفلسفي اللاإنجابي الذي يعطي قيمة سلبية ومعدمة للقدوم للحياة ويرفض الولادة وتعدد النسل، فأسس مشروعا سيورانيا يضع فيه معالم الإنسان القادم لهذا الوجود وتساؤلاته عن مدى قيمة حياته العبثية وحجم معاناته، فجسد ذلك سيوران من خلال سيرته الذاتية

Summary

Through this brief research paper, we try to get acquainted with the various ideas of the pessimistic nihilist philosopher Emil Mihai Cioran and his influence on the various ideas of the philosophers Nietzsche and Schopenhauer. The features of the human coming to this existence and his questions about the value of his absurd life and the extent of his suffering. Cioran embodied this through his tense biography. He lived a life full of pain and anger over his existence at times and at other times he writes about his

* د. بوزيدي مسعودة: bouzidihani14@gmail.com

المتأزمة فقد عاش حياة مليئة بالألم والسخط على وجوده تارة، وتارة أخرى يكتب عن فشله المعلن اتجاه الحياة، فهو غريب الذوبان في هذا العالم المليء بالمتناقضات ولا خلاص من هذا اليأس إلا بالعودة إلى نعيم ما قبل الولادة وهو أكثر ملاءمة لهذا العذاب السيوراني.

الكلمات المفتاحية: الولادة، الألم، العدم، المعاناة، الانتحار.

declared failure towards life, as he is strange to dissolve in this world full of contradictions and there is no salvation from This despair is nothing but a return to the bliss of pre-birth, which is more suitable for this seuranic torment.

Key words: birth, pain, nothingness, suffering, suicide.

مقدمة:

صدمة الميلاد نحو المجهول .. تترآى منها مغامرة سوداوية عبثية لا جدوى منها معتركها عار الكينونة أشلاء فلسفية غيرت مصير الأنا السيورانية، وفي خضم هذه المشاكسة الفلسفية التي تعاني من الصراع بين العقل والنفس وبين الروح والجسد تقترن بلحظة من اللازمن تأبى السقوط في الزمن، يعتري السيد سيوران قلق ويأس ومعاناة وتمرد كامل ينحني أمامه منهارا بسخط هاته الفاجعة اللعينة يرثي كلماته تارة ويندب حظه تارة أخرى، تمرد في عالم اللاواقعية للخلاص من معاناته وآلامه التي أنهكت أفكاره العقلية المهندمة، علامات الهوس لأنا سيورانية أسيرة الماضي بحيويتها تعشق الذوبان والانحلال في نعيم ما قبل الولادة، هذا العقل السيوراني المتعالي والمنكسر والمجروح الذي يتوج امتيازه وقمة عجزه في لحظة من العذاب والكآبة. والسؤال الذي يراودنا اللحظة: كيف استطاع السيد سيوران أن يخوض حياته السوداوية ويتأرجح بين قمم العقل ومهاوي الكآبة ؟

ما دفعني لاختيار هاته الورقة البحثية هي محاولاتي لدراسة أهم الأفكار التي جسدها التوجه الفلسفي اللاإنجابي باختلاف آراء المفكرين والفلاسفة وتفاوت الديانات وأعرافها لهذا المفهوم في تاريخ حضاراتنا البشرية، فكان هدفنا ولزاما علينا من هاته الدراسة والتي اخترلناها في الفكر السيوراني أن نقوم بدراسة أنطولوجيا الشذرات السيورانية السوداوية المتناقضة والتعمق في تأملاته التشاؤمية التي لا يمكن تصورها وتحليلها بدقة وموضوعية ومعالجة تلك الأفكار الفلسفية متبعين في ذلك منهجا تحليليا لتحليل الإشكالية المطروحة تارة واتخاذ المنهج المقارن من أجل إبراز الاختلافات ومقارنتها مع سابقتها تارة أخرى.

1. شذرات سيورانية ... حمّى الكتابة ليوميات فكرية قاتمة:

صمت فعزلة ثم صرخة تختزل بكلمات تنفجر لأشلاء لا تدركها الروح تحولها الأنا السيورانية لشذرات حية معلنة تهاويها وسقوطها في عالم لا يستحق ما ترغب فيه. يقول سيوران:« الآثار الأدبية تموت، ولأن الشذرات لم تعش فإنها لا تستطيع زيادة عن ذلك أن تموت.»(سيوران، 2015، ص 209) لذا يعتبر فريديريك نيتشه أن الشذرة هي فن الخلود، فإذا كانت الشذرة السيورانية لا تهدف إلى أي استنتاج أو إقناع فإنها تطلق من حين لآخر وميضا من الصفاء يبدو فيه العالم فاقدا لكل معنى. يقول سيوران:« لا أسلوب مع اليقين، الانشغال بتجويد القول من مميزات من لا ينامون على عقيدة، إنهم يتعلقون بالكلمات تلك الشبيهة بالواقع في غياب الأرضية الصلبة، أما الآخرون الأقوياء بقناعاتهم فيهزؤون بمظهر الكلمات ويسترخون في الارتجال.»(زنار، 2009، ص 39)

تسأله سيفي جودو في كتاب خصصته للتعريف بفلسفته:« ماذا تقول للذي يكتشف أعمالك لأول مرة؟ هل تنصحه أن يبدأ بكتاب معين من كتبك؟ يجيب: يختار من حيث شاء فليس هناك تقدم في كتاباتي إذ يحتوي أول كتبي ضمنيا على كل ما قلته لاحقا، يبقى الهاجس هو هو فكأنه مخدر بالتحسر على سقوطه في جسده، كل شيء يدور حول هذه الهزيمة ينطلق منها وإليها يعود.»(زنار، 2009، ص 19)

في تفضيله للكتابة المقطعية يرى "أن الشذرة هي الشّكل الوحيد الملائم لمزاجي تمثل كبرياء لحظة، لحظة محولة مع كل التناقضات الّتي تحتويها، إن عملاً ذا نفس طويل وخاضعا لمتطلبات البناء ومزيفا بهاجس التّتابع هو عمل من الإفراط في التماسك بحيث لا يمكن أن يكون حقيقيا.»(سيوران، 2014، ص 19)

إن كتاب المياه بلون الغرق أول الكتب الشذرية أو المقطعية لسيوران زيادة على أن كتابة الشذرات هي من أهم خصوصياته الأسلوبية وحتى الفكرية، فقد لُقب بلاروشفوكو القرن العشرين على الرغم من اختلافه عن لاروشفوكو وباسكال ولابروبير وغيرهم من كتاب القرن السابع عشر الذين جعلوا من الكتابة القصيرة سلاحا يواجهون به الانحلال الأخلاقي والثقافي لعصرهم.(سيوران، 2010، ص 08) لذلك يقول سيوران:« فتاريخ الأفكار هو تاريخ ضغينة اللائذين بالعزلة.»(سيوران، 2003، ص26) فالسيد سيوران ينحني أمام ضجيجه الذاتاني ويأبى الضجيج الخارجي معلنا بذلك رحلته للعالم الداخلي الذي يهوى أن يستقر بين غمار العزلة والصراخ. رأينا هذا يؤكده سيوران في قوله أن:« كل بداية لفكرة توافق جرحا لا يدرك في الروح.»(سيوران، 2014، ص 37) لذا فقد فضل شكل الكتابة المقطعية والاعتراف والحكمة المختزلة

على الخطاب المتماسك زورا وزيفا فيمكننا تحمل الشر ليس مفهمته ولا معرفة لديه إلا عبر الحواس فكل تجربة عميقة تصاغ بعبارات فيزيولوجية.(سيوران، 2014، ص 06) ويضيف سيوران تعريفا آخر لهاته الكتابة المميزة أن:« الشذرة جنس كتابة مخيّب للآمال بلا شك، مع أنه الوحيد النزيه.»(سيوران، 2014، ص 51)

تبدو شذرات سيوران الفكرية لأول وهلة كأنها اعترافات وملاحظات ومحاضر متباعدة ومنفصلة عن بعضها البعض ولكن يجمع بين كل المواقف الجزئية الصغيرة خيط يجعلها تشكل في النهاية موقفنا من الحياة، نظرة عن العالم، تشخيصًا للوضع البشري.(زنار، 2009، ص 63) ويصف سيوران نفسه بالفيلسوف العوّاء:« أفكاري إذا كانت هناك أفكار تنبح إنها لا تفسر شيئا بل تنفجر.»(سيوران، 2014، ص68)

فيا لحظ الروائي أو الكاتب المسرحي الذي يعبر متنكرا، فإذا هو يتخلص من كل الصراعات علاوة على الشخصيات التي تتقاتل داخله، الأمر مختلف بالنسبة إلى الباحث المحاصر في جنس جحود لا يستطيع فيه عرض تناقضاته الخاصة إلا ناقض نفسه في كل خطوة، نحن أكثر حرية في الشذرة انتصار الأنا المنفجرة.(سيوران، 2018، ص 119) وفي ذات السياق يقول سيوران:« يفترض أن لا نؤلف الكتب إلا لنقول فيها ما لا نجرؤ على البوح به لأحد.»(سيوران، 2015، ص 35) إذن فالكتابة مرآة ناصعة لتأمل وإثبات وتصحيح لوضعية الكائن أمام الوجود بأناقة الأسلوب والشّذرات الّتي تلمع كالبرق الشعري وأصالة الكلمات الحادة كالنّصل، تبدو أعمال سيوران أشبه بلعبة في الفكر ولعبة في اللغة تنطلق من الحياة وتعود إليها بحيث

يتحول الانتحار مثلاً إلى أقنوم أدبي وإلى فرضية تساعده على الحياة.(ناصر الدين، 2020، ص 02)

تقول سيمون بويه:« إن جميع كتاباته ما هي إلا تنويعات حول نفس المسألة ولابد أن تلك المسألة هي الّتي تبدت أمامه في العشرين من عمره حسبما كرّر مرارًا، لقد ولدتم جزافا تلك هي رسالته الأولى والأخيرة لبني نوعه.»(زنار، 2009، ص18) فقد كان نيتشه يقول إن الأفكار تأتي مع المشي، أما شانكارا الحكيم والقديس الهندي فكان يرى أن المشي يبدد التفكير، الفكرتان محققتان بنفس الدرجة ومن ثم فهما متساويتان في الصحة وفي وسع أي كان أن يتأكد من ذلك في ظرف ساعة وأحيانا في ظرف دقيقة.(سيوران، 2015، ص 37) أما بالنسبة لسيوران فإن "كل فكرة تولد فينا، يتعفن شيء ما فينا."(سيوران، 2014، ص 25) لهذا اختار سيوران هذا اللون من الكتابة للتعبير عن حالته ووضعه المتأزم غير المتقبل وبقوله يصرح بأن:« ما دمنا لا نعرف إلى أين نتجه فلنختبر التفكير المتقطع باعتباره انعكاسا لزمن يتطاير شظايا.»(سيوران، 2018، ص 141) ولهذا يرى السيد سيوران أنه كي يكتب شيئا متماسكا ينبغي على الإنسان أن يكون نشيطا، بالطبع ليس مسموحا أبدا قراءة كتب الحكم والأقوال المأثورة من الصفحة الأولى إلى الأخيرة، فهذا يولد الانطباع بفوضى شاملة وانعدام الجد ينبغي مطالعتها في المساء قبل الذهاب إلى الفراش أو في حالة الحصر النفسي والنفور فهذه الأقوال المأثورة تدمر نفسها بنفسها، فليست ساعات السهر في آخر الأمر سوى حيز لا ينتهي من رفض الفكر للفكر إنها الوعي وقد ضاق بالوعي. فسيد الكآبة عاش منفيا في الوجود تحاصره أفكار اللاخلاص من كل جانب،

فيبدو من خلال ما دوّن كأنه كان مكبلا بما يشبه اللاقرار، فلا آمن بالبعث المسيحي ولا رغب في أن يفنى مع البوذية، لا أمل في البعث مع سيدنا عيسى ولا إمحاء مع السيد اللطيف بوذا ولا تضحية بالعقل ولا خطوة ما نحو رهان الفيلسوف باسكال على الرغم استسلامه للأمر الواقع وزهده الظاهريين، فليس من السهل أن نراه يحذو حذو رسول التشاؤم والتطيّر شوبنهاور الذي يرى في وجودنا صراعا مستمرا مع الحياة مع يقيننا التام بأننا نمنى بالهزيمة النكراء في نهاية المطاف.(زنار، 2009، ص 24)

في إجابة له عن سؤال كيف تتحمل الحياة ؟ أشار سيوران إلى الإستيطيقا إلى ضرورة الكذب من أجل الوجود، ثمة دور تعزية الفن: أكتب لأتفادى نوبة، في التعبير راحة، الكتابة انتحار مؤجل.(سيوران، 2014، ص 07) ولاحظت في أعقاب كل هزة داخلية أن أفكاري تحلق للحظات قصيرة ثم تأخذ مثيرة للرثاء إن لم أقل مثيرة للسخرية، حصل ذلك باستمرار أثناء أزماتي كلها حاسمة كانت أم غير حاسمة، ما أن تقوم بقفزة إلى خارج الحياة حتى تنتقم الحياة وتعود بك إلى مستواها.(سيوران، 2018، ص 71) فسيوران من خلال هذا الشكل الأدبي الحر أن يقول الشيء ونقيضه لا تناقضا مع نفسه فهذا سوء فهم لكتابة سيوران وفكره بل تعبيرا عن كل أبعاد نفسه متوخيا في ذلك أسلوبا ديناميكيا حيويا واختيار دقيقا للكلمات.(سيوران، 2010، ص 08) فعلى الكتاب الحقيقي أن يحرك الجراح، بل عليه أن يتسبب فيها، على الكتاب أن يشكل خطرا.(سيوران، 2014، ص 48) فالشذرات السيورانية مثلت الصراع الوجودي الإنساني السيوراني المبعثر، قدست رتابة الألم بصرخة الذات عن ذاتها ورفض الوعي لأناها بل اصطدام حاد تُوج باللحظة الأولى لما قبل الزمن بزمنها.

2. اللاإنجابية:

هي توجه فلسفي يعطي قيمة سلبية للقدوم للحياة أو الولادة أي تعني رفض إحضار مواليد جدد للحياة بإرادتك، ومن بين أهم أنصار هذا التوجه الفلسفي المتشائم كل من نيتشه وشوبنهاور الذي اعتبرها كتيار ضروري وأخلاقي، وغوستاف فلوبير وميشال أونفراي والروماني إميل ميهاي سيوران، وأشهر الفلاسفة المعاصرين ديفيد بنتار الذي رفض التناسل من خلال كتابه: "الأفضل ألا تأتي أبدا: ضرر القدوم إلى الوجود".

لقد ترجم هاري سينغ جور تعاليم بوذا أن الولادة نقل للمعاناة والتي هي مضمون الحياة، فالرجل يُحضر الأطفال مسببا لهم وله التقدم في السن والشيخوخة والموت فلو فكر لوهلة وأدرك حجم المعاناة التي سيزيدها بتصرفه لكان قد امتنع عن الانجاب وتتوقف الشيخوخة والموت ذلك هو الأمر الذي فات المسيح وأدركه بوذا، الذي يقول:« لولا وجود ثلاثة أشياء في العالم يا تلاميذي لما احتاج الكائن الأكمل إلى الظهور في هذه الدنيا.»(سيوران، 2015، ص 08) لذا يرى بوذا أن كثيرا من الألم يصنعه الإنسان لغيره حين يتكاثر، فهكذا يصنع الموت والعجز الذي هو مصير الإنسان. كل شيء ألم هذه الصيغة البوذية يمكن أن تصبح إذا ما تم تحديثها كل شيء كابوس، في الوقت نفسه يمكن للنيرفانا وهي المدعوة إلى وضع حد للعذاب المتفشي أن تكف من كونها ملاذا لأقلية مخصومة كي تصبح كونية مثل الكابوس نفسه.(سيوران، 2015، ص 20)

فالنبي أيوب يقول:« ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي فيه قبل قد حبل برجل، ليكن ذلك اليوم ظلاما لا يعتني به الله من فوق ولا يشرق عليه نهار ليملكه

الظلام وظِل الموت، ليحل عليه السحاب أما ذلك الليل فليكن ملعونا وليمسكه الظلام ولا يدخل في عداد أيام السنة ولا يحسب في أيام الشهور وليمتلئ هذا الليل بالغم ولا يعرف فرح ولا مسرة.»(يوحنا، 2008، ص 60) فالنبي أيوب لعن يوم ميلاده المظلم وتمنى أنه قد هلك في هذا اليوم وما كان قد ولد لمصارعة ومعاندة هذا الألم كما تمنى أنه لو غضب الله على يوم ميلاده.

أما سيوران يرد بعبارة:« فعلى العكس من أيوب لم ألعن يوم ميلادي أما الأيام الأخرى فقد أشبعتها لعنات.»(سيوران، 2015، ص 13) يؤكد السيد سيوران أن كل ما كتبته يدور في العمق حول شخصي، حول أنايا وهذا يتناقض تماما مع روح البوذية، يقول سيوران:« أنا بوذي فيما يخص استنطاق الألم والشيخوخة والموت فقط، ولكن حينما يقول بوذا والآن اقتلوا الرغبات وانتصروا على الذات وأهوائها لا أستطيع.»(زنار، 2009، ص 37) أما في مسألة صياغة الألم فهو لا يتوافق أبدا في طرح الديانة البوذية لهذا المفهوم، فحسبهم ما هو ليس بدائم هو ألم، ما هو ألم ليس بأنا، ما هو ليس بأنا ليس لي، أنا لست هو، وهو ليس أنا، ما هو ألم ليس بأنا يصعب بل يستحيل الاتفاق مع البوذية على هذه النقطة على الرغم من أنها أساسية، الألم بالنسبة إلينا هو أكثر ما هو نحن أكثر ما هو الذات، يا لها من ديانة غريبة ترى الألم في كل مكان وتؤكد في الوقت نفسه أنه غير واقعي.(سيوران، 2018، ص 91) وأن أذهب إلى أبعد مما ذهب البوذا أن أرتفع فوق النيرفانا أن أتعلم الاستغناء عنها، أن أصل إلى حيث لا يوقفني بعد ذلك شيء ولا حتى فكرة الخلاص، أن أعتبر فكرة الخلاص مجرد استراحة.(سيوران، 2015، ص255) لذا فهذه الفكرة لا تتناسب وخصوصية فكره.

3. اعترافات سيورانية ...

تأثر إميل سيوران بكل من الفلاسفة الألمان إيمانويل كانط وفريديريك نيتشه وآرثر شوبنهاور ومارتن هايدجر وتمرد ألبير كامو وصمويل بيكيت والكتاب الروس أمثال تشيخوف ودوستوفيسكي والشاعر الروماني أمينيسكو والشاعر المتشائم المصاب بالأرق الدائم لوتريامون "ايزدوردوكاس".

لكل عائلة فلسفتها أحد أولاد عمومتي الّذي مات في سن مبكرة كتب لي مرة:« كل شيء سيبقى كما كان وسيظل بالتأكيد مستقبلاً كما هو إلى أن يأتي الزّمن الّذي يتوقف فيه عن الوجود، بينما ختمت أمي رسالتها الأخيرة لي قائلة: بغض النظر عما يقوم به الإنسان فسيأتي اليوم الّذي يندم فيه على ما قام به عاجلاً أم آجلاً، إن هاتين الرسالتين العائليتين لا تتيحان لي إمكانية الشّعور بأي قدر من الفخر لأن عبء النّدم الثّقيل هذا لم يكن نتاج خبراتي الشّخصية بل كان إرثًا عائليًا هو أن لا تكون مؤهلا للوهم.»(سيوران، 2015، ص 87)

آهٍ على بدايات السيد سيوران ... آهٍ على السيد سيوران الضعيف أمام فكره، هاته الكلمات القاتمة ... لا نستطيع لا شرحها ولا إثباتها ولا إيصالها ولا تفنيدها، بل يبثها بحزن عميق وألم متصدع سيوران بقوله:« لو كنت أعلم ما سيؤول إليه حالك لأجهضتك منذ شهور الحمل الأولى ...كلمات قد تحمل محمل الغضب وقد تمر عابرة دون أثر يُذكر لولا أنها وقعت في أذني سيوران لقد وضعته تلك الكلمات في مواجهة تحول آخر انسلاخ من طمأنينة النفس ذلك اليقين الخفي بأنه لم يوجد عبثا، هكذا إذن كان من الممكن أن يموت قبل أن يولد أن يلقى به خارج الرحم لمجرد رغبة أو نزوة، لم

يوجد إلا نتيجة صدفة فوجوده إذن ليس ضروريا.»(سيوران، 2003، ص 11) هكذا ينعي سيوران لحظة ولادته، فطالما تمسكت باللحظات لكنها تتملص مني فاللحظات عدو لي ترفضني وتعلن رفضي بالاتحاد ضدي كلها بغيضة تشهر بمنفايّ وهزيمتي، بنفس قابلية هذه الفكرة، فها هو سورين كيركيجارد يسخط هذا الألم:« أنا عندما يولد مولود أدخل في حداد وأتذرع من الله ألا يصل إلى سن الرشد.»(زنار، 2009، ص 24)

في نظر سيوران ينبغي أن تكون الفلسفة قضية معاشة ذاتيًا، أن تكون تجربة شخصية أو لا تكون، ويعتقد سيوران أنه في مجال الفلسفة ليس من الضروري نحت كلمات جديدة ومصطلحات تقنية بالعكس تماما، هذه التقنوية هي الخطر الكبير الذي يتربص بالفلسفة والذي يبعدنا عن حقيقة الأشياء، فلم يعد الفيلسوف كما هو الحال لدى أفلاطون هو المحب الأكبر، بل فقط المتألم الأكبر، الألم الكبير هو المحرر الأخير للعقل هو المعلم الأول للشك الكبير ... الألم الكبير هذا الألم الطويل البطيء الّذي يتمهل بينما نحن وكأننا نحترق في نيران لا تنطفئ، يجبرنا نحن الفلاسفة أن نتعمق في داخلنا ونتخلص من كل ثقة وطيب طويلة وتستر وتلطف وتوسل من كل ما كنا قد أخضعنا إنسانيتنا له من قبل إنني أشك إن كان مثل هذا الألم سيصلحنا لكن أعلم أنه سيعمقنا.(شنيدرس، 2005، ص 37) والواضح من سيوران ذلك في كنهه الدائم التفكير، التفكير الهادئ المهووس والمحاصر يترجم ذلك بعبارة أنه:« وأن تؤمن بالفلسفة فهذا دليل عافية، أما ليس كذلك فهو أن تنكب على التفكير.»(سيوران، 2014، ص 64) بالإضافة لذلك يضيف سيوران أنه لا تُعلم الفلسفة إلا في الأغوار، في حديقة، أو في البيت، الكرسيّ ضريح الفيلسوف، موت كل فكر حيّ، الكرسيّ هو

العقل في حداد.(سيوران، 2015، ص 230) هذا التفكير المندمج في اللازمن ترمي إليه الأنا السيورانية في كثير من شذراتها التي تأقلمت ولازمت حدود أغوار الماوراء.

إذا كان السيد سيوران متأثرا بنيتشه فهو يضرب عرض الحائط بمقولة ما بعد الخير والشر، ويدعو إلى مراجعة هذا الإقرار الذي يعتبره ساذجا وصبيانيا لأنه يرى أن الإنسان لم يتهيأ بعد لمرحلة ما بعد المانوية لما تتطلبه من وعي وإدراك يكادان يخرجان الإنسان من التاريخ ذاته، بذلك يبدو فهم سيوران للعالم وللتاريخ وللإنسان فهما تكوينيا أو كوسموغونيا لما تتضمنه هذه الكلمة من دلالات ميتافيزيقية وأنطولوجية تدفع بنا نحو ذلك الماضي الغامض.(سيوران، 2010، ص 10) لذلك يقول سيوران:« كلما قرأت المتشائمين أحببت الحياة أكثر يكتب في دموع وقدسيون ولم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين بعد: أتصرف وأستجيب كعاشق سعيد بعد كل قراءة لشوبنهاور، لكن إن كان شوبنهاور محقا في اعتبار الحياة مجرد حلم فإنه يرتكب كبرى الكبائر.»(زنار، 2009، ص 34) ففريديريك نيتشه يرى أن أعذب الأشياء في الكون بعيدة عن متناولك ألا تكون قد ولدت ألا تكون شيئا أن تموت في أقرب وقت ممكن ذاك هو أنفع وأجدى، ويوافق إلى حد بعيد فكرة آرثر شوبنهاور أنه ثمة أوقات يبدو الأطفال فيها بمظهر سجناء أبرياء ليسوا مدانين بالموت بل بالحياة جاهلين اللحظة بالحكم الذي أصدر في حقهم. فالسّمة الأساسية لشخصية شوبنهاور هي التشاؤم العدواني الطبيعة لديه هي معركة من أجل الوجود من يعش يعيش على حساب الآخرين، فالحياة ذاتها خداع مستمر للمعاناة والملل، كل تاريخ الحياة عبارة عن تاريخ معاناة وما نعرفه كمجتمع بشري هو في الأساس الجحيم من البشر إلا أنفس معذبة من ناحية وشياطين

في تلك الأنفس من ناحية أخرى. لذلك فالعالم هو أسوء ما يمكن أن يكون هو شيء كان يجب ألا يكون أفضل مما كان لعله يكون هو أولا يكون أي شيء كائنا مطلقا.(شنيدرس، 2005، ص 24)

لقد انصبت معظم اهتمامات كل الفلاسفة الوجوديين على المشكلات الوجودية للإنسانية مثل معنى الحياة والموت والمعاناة، وباختصار كل ما يتصل بمشكلات الوجود البشري أو الوجود الإنساني في العالم كما يرى هايدجر، فمن المبادئ الرئيسية في الوجودية القول أن الفرد هو مقياس الأشياء جميعا ولا سيما كل القيم، فالحياة عملية متصلة من اتخاذ القرارات وكل قرار هو في نهاية الأمر شخصي وفردي وما حياة الإنسان إلا مجرد مشروع وكل منا مهندس ذاته وبناؤها.(مهران، مدين، 2004، ص94)

زعيم الوجودية سارتر هو الآخر يوضح بأن الإنسان يوجد أولا ويصادف وينبثق في العالم ثم يحدد من بعد فهو صانع نفسه، ولهذا فالإنسان هو أولا مشروع وتصميم يحيا حياته ولا شيء يوجد قبل هذا المشروع، بل هو الذي يصمم مستقبله ثم يحققه من هذا التصميم ما يستطيع. فالوجود إذن ممارسة سابقة على الماهية، وبالتالي فالإنسان يأتي للوجود لا كموضوع في مكان وزمان بل كنشاط مستمر للحرية، وحتى في حالة عدم وجود إله خالق هناك كائن على الأقل وجوده سابق على ماهيته، كائن يوجد قبل أن يستطيع تعريفه بأي فكرة، وعلى غرار هذا الموقف فإن السيد سيوران ذلك الفيلسوف العدمي العبثي يرفض وينبذ الفلسفة الوجودية بكل تياراتها واختلاف مذاهبها وروادها وتباين أفكارهم ويرى أن وجودنا هو صرخة معدمة لولادتنا المفعمة

بالشر ولا معنى لها ولا فحوى من عيش حياتنا لذا فهو متشائم لحد كبير من هاته الصدفة والحقيقة العبثية ومن الأفضل أن لا نولد ألا نكون ونوجد.

4. كآبة مفعمة بجنون الحياة:

يعود تاريخ الاكتئاب أو الكآبة إلى بداية التّاريخ البشري ذاته وهناك توثيق للاكتئاب في الكتابات القديمة ومنها الإنجيل، إذ يقول أيوب عليه السلام:« لِمَا يُعطى لشقي نور وحياة لمرّي النّفس، الذين ينتظرون الموت وليس هو ويحفرون عليه أكثر من الكنوز، المسرورين إلى أن يبتهجوا الفرحين عندما يجدون قبرًا.»(سفر أيوب) ولقد أثنى أرسطو على الكآبة لأنه ظنها مرتبطة بالإبداع في جوانب الفلسفة والشعر والفن، أما الإغريق فقد رأوا أن الجنون طريق الإلهام وما الكآبة إلا طريقا لتلقي البركات، وقد عرف الإغريق الفرق بين الأمراض العقلية ورأوا فيها ضرورة للإبداع وطريقا مقدسة لتلقي الإلهام ولم يتوقف الأمر عند الإغريق فقد شاعت فكرة الكآبة بين مبدعي عصر النهضة كذلك.

في حين يرى السيد سيوران أن الكآبة تتغذى من ذاتها ولهذا لا تعرف كيف تتجدد فلا أغفر لنفسي أني وُلدت لأني حين تطفلت على هذا العالم قمت بإفشاء سر خنت عهدا ذا شأن ارتكبت خطأ لا يحيط بخطورته وصف إلا أنه يحدث لي أحيانا أن أكون أقل يقينا عندئذ تبدو لي ولادتي مصيبة كنت لا أتعزى عنها لو لم أعرفها. وثمة بلا شك كآبة سريرية تؤثر فيها الأدوية أحيانا وثمة أخرى تحتانية تتغطى حتى بانفجارات بهجتنا وتلازمنا في كل مكان دون أن تتركنا لحظة، هذا الحضور الطاغي المؤذي لا شيء يسمح لنا بالخلاص منه، إنها الأنا في مواجهة نفسها إلى الأبد.(سيوران، 2018،

ص51) يحلل سيوران فكرته هذه أنه حين نفقد كل دافع تسود الدنيا في أعيننا وتصبح تلك السوداوية الحافز الأخير، نصير عاجزين عن الاستغناء عنها فتتبعنا، ويبلغ خوفنا من أن نجزم منها حد أن تصبح عبارة امنحونا خبزنا اليومي من الكآبة النغمة التي تصاحب كل انتظاراتنا وتوسلاتنا.(سيوران، 2003، ص 11) ويبرر ذلك سيد الكآبة أنه حين نكون في أقاصي الكآبة فإن كل ما يجيء لتغذيتها ومنحها مزيدا من المادة يرتفع بها إلى مستوى نعجز عن اللحاق بما فيه، فإذا هي أكبر وأضخم مما يلزم لا عجب من ثم في أن ينتهي بنا الأمر إلى أنن ننظر إليها وكأنها ليست كآبتنا.(سيوران، 2015، ص 140) وما بين الملل والكآبة حدود فاصلة بالمعنى السيوراني بهذا الشأن يقول سيوران:« الملل قلق يرقاني أما الكآبة فهي حقد حالم.»(سيوران، 2003، ص70)

تؤكد جاميسون في سيرة ذاتية عن الهوس والاكتئاب والجنون أن نوبة الاكتئاب تتميز بهبوط حاد في المزاج وانخفاض في الطاقة إلى حد عدم المقدرة على أداء العمل أو القراءة أو الكتابة، فيبدي فيها الشخص عادة ضيقا وتوترا بالغين مع فقدان تقدير الذات وعادة ما تكون الأحاسيس بعدم الفائدة أو الذنب بارزة ويمكن أن تصاحبها الضلالات والهلاوس وتصبح نظرة المريض للحياة سوداوية قاتمة ويمثل الانتحار خطرا محتملا في الحالات الشديدة.(جاميسون، 2008، ص 20) وبهذا يصل الإنسان إلى حالة من التدهور العقلي تسيطر فيه التعاسة والأفكار السوداوية، فالإنسان البدائي الذي لم تلوثه الحضارة الحديثة ولا يمكن أن يختبر المشاعر المرتبطة بالاكتئاب، ولكن منحنيات هذه الكآبة اقترنت بإنسان عصرنا المعاصر فلامست قوته وأضعفت وجوده.

يقول سيوران:« فالكآبة تكفر عن هذا الوجود غير أنها هي التي تفصلنا عنه.»(سيوران، 2018، ص 85) فمن جانب آخر إذا كان كانط يؤكد أن الانتحار فعل لا أخلاقي وأن الإنسان سرعان ما يدرك أن الطبيعة يهدف قانونها إلى تحطيم الحياة، إما تناقض نفسها بنفسها ولا يمكن أن تحتفظ تبعا لذلك بما يجعلها طبيعية، فإن السيد سيوران يرى أنه:« لا ينتحر إلا المتفائلون الذين لم يعودوا قادرين على الاستمرار في تفاؤلهم، أما الآخرون فلماذا يكون لهم مبرر الموت وهم لا يملكون مبرر الحياة ... الشر كل الشر ليس أمامنا بل من ورائنا هو ليس أن نفنى وإنما أن نكون».(زنار، 2009، ص 23)

ذكريات مهوسة يتذكرها فتنخر فكر السيد سيوران:« كنت في العشرين وقد ضقت ذرعا بكل شيء ذات يوم تهالكت على أريكة صارخا "لم أعد أحتمل" أعلمتني أمي التي سبق أن روّعتها الليالي البيضاء بأنها أرسلت من يقيم قدّاسا باسمي من أجل راحتي، وددت أن أصرخ ليس واحدا بل ثلاثين ألفا مفكرا.»(سيوران،2015، ص82) يوضح ذلك سيوران أن التخلص من الحياة حرمان من سعادة السخرية منها، هذا هو الرد الوحيد على من يخبرك أنه يريد الانتحار ولما كنت قد عايشت الانتحار يوما بعد يوم فإن من الظلم والجحود أن أقدح فيه هل ثمة سلوك مستقيم وطبيعي أكثر من ذلك ما هو خلاف ذلك شهيتي المحمومة تجاه الوجود تلك النقيضة الخطرة النقيضة بامتياز نقيضتي، ففكرة الانتحار هي الفكرة الوحيدة التي تجعلنا نتحمل الحياة، فألبير كامو يحدد فكرته من خلال أن التعامل مع حالة غياب المعنى الكامنة في جوف العالم من خلال رفض الحياة ببساطة والتوقف عن العيش أي الانتحار لا يعد حلا للمشكلة، بل هو فقط محاولة لعدم الاضطرار لمواجهتها. وتوضح ذلك جاميسون أن الاكتئاب

مرض يجبر الإنسان على التوقف وتأمل حياته والنظر إلى أعماقه نظرة وجودية مليئة بالتساؤلات عن ماهية الحياة والهدف من الوجود.

5. الميتا ولادة:

عذابات الاستمرار في الوجود ... استسلام بريء وشكوى من هذا الخطر الناشيء، فلماذا السخط مادمنا قد وجدنا؟ فالسيد سيوران لم يحتف بولادته شأنه شأن سابقيه الذين أشهروا بقوة معاداتهم للحياة وسخطها، فأدورنو هذا الفيلسوف الحالم كان يلعن جسمه الذي وهبه الحياة، أما صمويل بيكيت فيرى أنه لا شيء في العالم أكثر متعة من التعاسة، تعاسة تقابلها صرخة: ماذا لو ندمنا؟ على ماذا؟ على أننا ولدنا؟. سؤال أنطولوجي فلسفي مباشر يحمل في بذوره تحديد لفنائه، هو التناقض المستمر هو الندم بل الفشل الذي يقلق ويؤرق سيد الكآبة.

ألم دائم يثيره طوفان الصمت المخيف في تقييم لحظة ملعونة، كلمات قاتلة أقصى ما تحتمل، مجاديفها لن توقف صيرورة هذه التزامنية يحاورها صاحب التفكير الفلسفي العميق إذ يقول فيها سيد الكآبة:« الثالثة صباحا، أنتبه إلى هذه الثانية ثم إلى الثانية الأخرى أقيم حصاد كل دقيقة لماذا هذا؟ لأني وُلدت .. إن نمطا خاصا من اليقظة هو الذي يؤدي إلى وضع الولادة موضع السؤال فمنذ وُجدت تبدو لي هذه الـ مُنْذُ مشحونة بدلالة مرعبة إلى حد يجعلها لا تطاق.»(سيوران، 2015، ص 07) فالولادة بحسب سيوران ألم بل بداية لكل الآلام وهي مجرد نتاج صدفة وشهوات مبعثرة، حقد نابع عن ذات أسيرة تتطلع للايقين المطلق وتوهجه المفعم بعدم الوجود فآهٍ لو ولدنا قبل الإنسان نوستالجيا حنين إلى زمن ما قبل الزمن حتى نتفادى كارثة الولادة إذن

فالشر خلفنا وليس أمامنا. حينما نقلنا إلى ما قبل الماضي فقدنا الرغبة في المستقبل والحاضر والماضي أيضا.(سيوران، 2014، ص 13)

إذا كانت الولادة تأسيسا أنطولوجيا للكائن البشري، فإن سيوران في كتابه "مثالب الولادة" يحيل البشرية جمعاء لنكران ومقت هذه الأنطولوجيا الفارغة فالولادة أو قل كارثة الولادة هي مغامرة عبثية لا جدوى منها لأن مصير الإنسان مرتبط بنهاية حتمية يغيب فيها وعيه ووجوده، ويكون مصيره كمصير أي كائن آخر، إذن لما كل هذا النواح؟ فإذا كان مصير الإنسان هو الموت، ما قيمة الولادة أصلا؟ هل ولد الإنسان ليموت؟ فقد أصبحت هذه الوساوس فكرة متسلطة تلازمه كظله فلا يستطيع منها خلاصا مهما بذل من جهد ومهما حاول إقناع نفسه بالعقل والمنطق. وقد تكون هذه الفكرة مشكلة فلسفية أو دينية فإذا به يظل يسائل نفسه: ما مصيري بعد الحياة؟ أو لماذا خلقت؟(راجح، 1968، ص 491) فأُسقطت الولادة من سلم الترتيب باعتبارها ضرورة أخلاقية تجسد قوة الخالق، بل وصلت حد التخييب لحقيقة ميلادية تحدد المصير. ففي قرارة ذاته مُخيب اتجاه هذا الوجود لأنه وُجد، دلالة كارثية تعظم شأن هذا الهلع والقلق المنبثق من عنف باطني مهزوم، فكيف ينتقم السيد سيوران من هذا المصير المحتم دون الرغبة فيه. يقول سيوران:« لا أغفر لنفسي أني ولدتُ لكأني حين تطفلت على هذا العالم قمت بإفشاء سر، خنت عهدا ذا شأن ارتكبت خطأ لا يحيط بخطورته وصف إلا أنه يحدث لي أحيانا أن أكون أقل يقينا، عندئذ تبدو لي ولادتي مصيبة كنت لا أتعزى عنها لو لم أعرفها.»(سيوران، 2015، ص 21) فالماضي مضى وانقضى وبمجرد التفكير فيه تحضر الكينونة الخالصة التي ترادف معنى ما قبل الولادة، وهذا ما

يرمي إليه سيوران:« فالهوس بالولادة ينهض على استثارة الذاكرة على حضور كاسح للماضي وكذلك على نهم إلى المأزق الأول لا منفذ ومن ثم لا فرح يأتي مما كان إنه لا يأتي إلا من الحاضر ومن مستقبل متحرر من الزمن. فبمجرد التفكير في أن لا أكون وُلدت أي سعادة، أي حرية أي مدى.»(سيوران، 2015، ص 30) فالولادة عذاب أبدي، بل خلاص متنكر ... فلم يكتف سيوران بلعن ذلك اليوم النحس الذي سقط فيه إلى هذا العالم بل أغرق أيامه كلها في بحر من الشتم والسب، تعتبر الولادة في نظره عدوه اللدود كارثة، بل صدفة غير سارة وهي خضوع واستسلام بل نكبة إنه سقوط حر في ورطة لا خروج منها أبدا.(زنار، 2009، ص 20)

ظلت تلك العبارة تسكن أعماق سيوران وتحفر فيه حتى أنه أعاد صياغتها على طريقته بعد سنوات طويلة قائلا:« في وسعي أن أرتكب الجرائم كلها باستثناء أن أكون أبا. مؤكدا بتلك المرارة التي يرفض نسبتها إلى اليأس بقدر ما يراها معبرة عن وضوح الرؤية، رؤيتي للمستقبل هي من الدقة بحيث لو كان لي أطفال لخنقتهم على الفور.»(سيوران، 2003، ص 11) فنستطيع أن نتصور في سكينة كاملة أن من الأفضل لو أن الحادثة التي هي "نحن" لم تحدث على الإطلاق. فشوبنهاور يرى في كتابه "في معاناة العالم" أن الحياة قد تعد حدثا عميقا عكر سكون العدم الميمون وأنه أيًا ما كانت الحال، مهما جرت الأمور معك مجرى حسنا فإنك بتقدم السنين بك ستدرك بجلاء أكثر أن الحياة عموما خيبة أمل لا بل خداع، لو كان جلب الأطفال إلى هذا العالم صنيع العقل الخالص وحده، أكان الجنس البشري سيستمر في الوجود؟ أليس التعاطف سيحمل الإنسان على تجنيب ما يليه من أجيال عبء الوجود؟ أو أيًا كان

فإنه لن يأخذ على عاتقه فرض هذا العبء عليها بدم بارد. فسيوران يدفع بالتأمل في تلك المعاناة مرة أخرى إلى أقصى مدى ممكن، لم يكتف بإضفاء هالة متميزة على المرض لكي لا نقول علاجه، بل ذهب إلى اعتبار المرض أهم شرط من شروط انبثاق الجانب الإنساني في بني آدم ،فكان المرض على رأس قائمة العوامل التي أدت إلى ظهوره.(زنار، 2009، ص 28)

ها هي شاعرية الأنا السيورانية العميقة تصاحب العدم، تتجدد معلنة رفض استحقاق فردوس الحياة التي لا يرضاها، بهذا الرأي السديد يخطو منحى الفيلسوف اليوناني الحكيم سقراط الذي يرى أن الحياة غير المفكر فيها لا تستحق أن نحياها، يعبر عن ذلك السيد سيوران بقوله:« منذ الطفولة أحسست بعبور الساعات مستقلة عن كل مرجع، عن كل فعل وعن كل واقعة، أحسست بانفصال الزمن عن كل ما ليس هو، عن كل ما ليس وجوده بذاته، كيانه الخاص، سلطانه، جبروته، أذكر بوضوح لا مثيل له تلك العشية حين وقفت لأول مرة قبالة الكون الشاغر، فإذا أنا لا شيء إلا فرار لحظات متمردة على القيام بالوظيفة الخاصة بها، كان الزمن ينسلخ من الوجود على حسابي.»(سيوران، 2015، ص 13) فلا هو يريد أن يحيا ولا أن يكون ضمن معنى الحياة هذا ما جعل سيوران يتحدى ويرفض الانفتاح وعدم التطابق في هذا الوجود. يبرز موقفه من خلال مقولته:« أنا مستعد للتخلي عن كل مشاهد العالم مقابل مشهد طفولتي وإن كنت أرى لزاما عليّ أن أضيف أني لا أصنع من هذه الطفولة فردوسا إلا بأثر من شعوذات ذاكرتي أو إعاقتها، جميعنا تلاحقنا أصولنا لكن الشعور الذي تثيره فيّ أصولي لا يترجم حتما إلا بكلمات سلبية في لغة جلد الذات والتسليم

بالمهانة والرضا بالكارثة.»(سيوران، 2010، ص 23) لذا فقد رفض سيوران مصيره المقنن الذي يلتف بمعاناة لا جوى منها سوى الهرب إلى نعيم ما قبل الولادة، نعيم تتصدر فيه أناه ربوع حقيقة اللاوجود الزّمني، هذا المهرب الوحيد بالرجوع إلى حنين ما قبل أن يكون ويوجد.

6. زنزانة الوجود ...عار الكينونة:

إن عدمية سيوران تستبعد أي هروب خارج عدمنا الزّمني فكيف نتمكن من معانقة الأبدية في حضن الزمن؟ إنه غنوصي ذو صفاء ووضوح فكري ينكر الخلاص تصوف دنيوي مستخلص من الأشكال الماورائية.(سيوران، 2014، ص 07) فنحن وحيدون في الحياة إلى حد أن لا بد أن نسأل عن أنفسنا أليست وحدة الاحتضار هي رمز الوجود البشري. يقول سيوران:« فالكينونة لا تخيب أبدا وفق تأكيد أحد الفلاسفة، من يخيب إذن ؟ ليست اللاكينونة بالتأكيد بما أنها عاجزة عن التخييب أصلا.»(سيوران، 2018، ص 55)

يتذمر سيوران بأي حق تُلقون في وجهي بحقائقي؟ أنتم تنسبون إلى أنفسكم حرية أنكرها عليكم، كل ما تدّعون صحيح أعترف بذلك إلا أنّي لم أسمح لكم بأن تكونوا صرحاء تجاهي بعد كل سورة غضب، إحساس بالخزي يصحبه ذلك الزّهو الثابت هذا على الأقل من صميم الحياة يعقبه هو أيضا إحساس بالخزي أكبر بكثير، أنا جبان لا قدرة لي على تحمل عذاب أن أكون سعيداً.»(سيوران، 2018، ص10) يظل سيوران يشرح الألم المتأزم بالقبول والرفض المتكرر بأن كل واحد منا هو في وضع آدم يجيب علينا أن نبدأ كل شيء من جديد، فالآدموية تعني ببساطة أن تطرح كل

مسائل الحياة سواء أكانت روحية أو تاريخية أو سياسية كأنها تطرح لأول مرة أن تكون آدمويا هذا يعني أنك مضطر لتدشين عالمك الخاص. فأن نعيش حقا يعني أن نرفض الآخرين، فالقبول بهم يتطلب التخلي عن الأشياء، كبح جماح الذات التصرف ضد الفطرة، إضعاف النفس، نحن لا نتصور الحرية إلا لأنفسنا ولا نبسطها على القريبين منّا إلا بشق الأنفس من ثم هشاشة الليبيرالية بوصفها تحديا لغرائزنا نجاحا عابرا شبيها بالمعجزة، وضعا استثنائيا على النقض من ضروراتنا العميقة.(سيوران، 2010، ص13) فالمصير السيوراني تُوج على أنقاض وهمي العدم والوجود المنتصر، أبدية سلبية ترامت خيبتها بالفرار من الجحيم نحو الفردوس غير المقنن.

7. نزعة القلق ... الأنا السيورانية المزقة:

هناك ممن يحاول أن يطرح على القلق مسحة فلسفية فيراه ضريبة ندفعها لوجودنا ومعايشتنا لهذا العصر الحديث، ولهذا نجد الفيلسوف الجزائري الفرنسي ألبير كامو يرى أن هذا العصر هو عصر الخوف، ويصور الشّاعر أودين هذا العصر في قصيدة شعرية له حملت نفس الاسم بأنه عصر القلق والمعاناة. فالقلق ما هو إلا نذير بأن هناك شيئا سيحدث من شأنه أن يهدد الكائن أو يخل من توازنه وطمأنينته إنه أشبه بجرس الإنذار الذي يعد لمواجهة الخطر.

فالقلق انفعال يتسم بالخوف والتوجس من أشياء مرتقبة تنطوي على تهديد حقيقي أو مجهول. يقول فرويد:« لعلّي لا أحتاج شخصيا أن أعرفكم بموضوع القلق لكن كل واحد منا دون استثناء قد عانى واختبر هذا الإحساس أو على الأحرى هذه الحالة الوجدانية مرة أو أكثر في حياته.»(عبد الستار، 2002، ص 10) فقد تمالكت السيد

سيوران حالات نفسية امتزجت حيرتها بتعب وخوف بريء وقلق أرهقه فكريا. يبرز سيوران هذا القلق المؤبد بالقول:« بداياتي لا تهمني ما يهمني هو البداية وإذا اصطدمت بولادتي بهذا الهوس التّافه فلأني عاجز عن الاجتماع باللحظة الأولى للزمن، كل قلق فردي مرّده في آخر المطاف إلى قلق كوني يقوم فيه كل إحساس من أحاسيسنا بالتكفير عن ذنب الإحساس الأوليّ الذي تسلل الكائن عن طريقه من لا ندري أين.»(سيوران، 2015، ص 23)

إن القلق السيوراني شكل من أشكال الحيرة فعلا، لكنها حيرة مطهرة من الخوف، إذ أننا حين لا نخشى شيئا باستثناء القلق نفسه.(سيوران، 2018، ص 14) يزيد تفصيلا عن ذلك سيوران أن القلق لا يثيره شيء إنه يبحث عن تبرير وللتوصل إلى ذلك سيستخدم أي شيء، إنه حقيقة في ذاته سابق على تغيراته الخاصة، سابق على تنويعاته، يثير نفسه، يُنجبها، إنه خلق لا متناهٍ وهو بذلك أقدر على التذكير بتصرفات الألوهية منه على التذكير بتصرفات الروح.(سيوران، 2015، ص 106) يثبت ذلك بقوله:« ثمة قلق فطري يقوم لدينا مقام العلم والحدس في الوقت نفسه.»(سيوران، 2003، ص 52)

يصف الطبيب النفسي الألماني إميل كريبلن ذلك:« إنه يشعر بالعزلة والتعاسة وكأنه مخلوق حرم من قدره، كما أنه شكك في وجود الخالق ويعيش في حالة استسلام كامل تغلق في وجهه كل أبواب الأمل فيعيش أيامه بصعوبة ويرفض كل شيء وكل ما حوله مصدر للقلق وتظل حياته بلا معنى ويحاصره شعور بالتفاهة والضآلة فتتسرب إلى رأسه فكرة التخلص من حياته دون أن يعلم السبب، غير أن كل ما يعلمه أن شيئا ما

قد انكسر داخله.»(ولبرت، 2014، ص 31) ومن الطبيعي أن يؤدي به هذا القلق الموصول والتوتر الدائم وصعوبة النوم إلى شعور شديد بالتعب والإرهاق إلى غير تلك الأعراض التي كانت تدرج فيما كان يسمى بالنوراستنيا.

سقراط الحكيم حينما كتب على واجهة معبد أبولو في ديلفي حكمة فلسفية "اعرف نفسك بنفسك" كان يرمي من خلالها دعوة الإنسان للبحث عن ذاته من خلال معرفة الذات لذاتها. كما أن ديكارت يرى أن الوعي هو جوهر معرفة الأنا، ويدرك العالم بها وجوديته وبالتالي تتأسس الأنا كموجود، فتأكد من تحديد وجود ذاته المفكرة عن طريق الشك فالكوجيتو الديكارتي أنا أفكر إذن أنا موجود هو الدعامة الأساسية لإثبات معرفة ووجود الذات المفكرة، إلا أن سيوران لم يجد في معرفة ذاته إلا تدفقات مؤلمة لمعاناة تلاحقه، إذ يقول:« فمعرفة الذات وهي أكثر المعارف مرارة تبدو في الوقت نفسه أقل ما تُعنى به من معرفة: ما جدوى أن نضبط أنفسنا من الصباح إلى المساء متلبسين بالوهم، أن نعود بلا رحمة إلى جدر كل فعل أن نخسر القضية تلو القضية في محكمة لا قضاة لها سوانا.»(سيوران، 2015، ص 50) يعاتب السيد سيوران نفسه ويؤرق فكره يناجي أناه المعدمة ... فلولا الضجر لما كانت لي هوية بفضله وبسببه وُهِبتُ إمكانية التعرف على ذاتي، فالضجر هو اللقاء مع الذات من خلال بطلان الذات ... ضجري انفجاري هذا ما امتاز به على القلقين الكبار الذين كانوا اجمالا مستسلمين وهادئين.(سيوران، 2014، ص 71) هذا القلق السيوراني الهادئ واللصيق بالخوف الطاهر يعبر عنه في واحدة من شذراته بأنه:« وحده القلق باعتباره يوتوبيا سوداء يمنحنا تفاصيل عن المستقبل.»(سيوران، 2003، ص 70)

بقي سيوران وفيًا لنزعته القلقة الممزقة محافظا على نبرته المعتادة وطابعه المميز إلى آخر قطرة من حبره. فقد كانت كتبه تعبيرًا طويل النّفس عن تجربة "فشل معلن" يمكن أن تقرأ كرسالة لطيفة مطولة حول طريق الإنسان المسدود ولا جدوى مسعاه في هذا الوجود.(زنار، 2009، ص 50) فما عاد الأمر يُحتمل وضع ينخر عقل سيد الكآبة ماضٍ مفعم برواية عنوانها من أنا؟ ولماذا أنا؟ ولماذا ولدت؟ تساؤلات واعترافات أرهقت صميمه تظهر في قوله:« أنا أستقيل من الإنسانية لم أعد أريد أن أكون ولم أعد قادرا على أن أكون إنسانا ماذا سأفعل؟ أتصيد نقاط الضعف في النظم الفلسفية أناضل من أجل القيم الأخلاقية والجمالية؟ كل ذلك هراء، أنبذ إنسانيتي حتى وإن كنت سأجد نفسي وحيدا ولكن أنا وحيد على كل حال في هذا العالم الذي لم أعد أنتظر منه أي شيء.»(سيوران، 2015، ص 221) فما الذي يمكن كسبه من هذا العالم؟ يجيب سيوران قائلا:« لست من هذا العالم، أنا في وضع الغريب الدائم في حالة لا انتماء كلي حيال أي شيء، ضياع الفردوس يستبدني أيما استبداد.»(زنار، 2009، ص 11) ويصف الروائي ستايرون هذا الشعور بقوله أنه:« تسيطر على عقل المريض قوى شديدة يشعر معها المرء أنه محبوس في غرفة شديدة الحرارة دون أي منفذ يشتم منه الهواء وما ينفك يفكر بالخلاص من محبسه.»(ولبرت، 2014، ص 135) ومن ثم قد يصبح خطرا على نفسه بسبب ما قد يرتكبه من أفعال حمقاء ضارة به كالانتحار ذلك العقل الذي يتوج قمة عجزه وإحساسه باليأس.

8. أنطولوجيا السقوط من الزمن ...

يُعتبر مفهوم الزمن من أهم المقولات الفلسفية التي عُني بها الفلاسفة والمفكرين منذ القدم فلقد احتل المفهوم مكانة مرموقة من خلال التحليل والتفسير، فلقد أقلق هذا المفهوم سيد الكآبة فطوّق معناه ولم يعترف به لأنه خسارة أبدية وجعله مجرد خيالات وخدعة وأوهاما، وأخذ يُناشد سيوران بعبارات يُخالف بها مما من حاصرهم هذا الزمن وحالفهم الحظ والرضى بهذا الجحيم المفتعل ضدهم. فإذا كان الآخرون يسقطون في الزمن، أما أنا فقد سقطت من الزمن.(سيوران، 2014، ص 33) يدافع عن قضيته بأنه حينما أردت أن أستقر في الزمن فإذا هو غير قابل للسكن وحين التفت إلى الخلود زلّت بي القدم.(سيوران، 2003، ص 124) يرثي أناه مرة أخرى فهذه اللحظة لحظتي حتى الأنا هي ذي تمضي، تنفلت مني هي ذي تختفي، هل أتورط مع اللحظة التالية؟ أصمّم على ذلك: هي ذي هنا على ذمتي وفي الوقت نفسه ها هي بعيدة، هكذا من الصباح إلى المساء لا شاغل إلا صناعة الماضي.(سيوران، 2015، ص 211) فلا بد من الاعتراف بأن الزمن يشكل عنصرنا الحيوي وعندما يُنزع منا نجد أنفسنا بلا سند في اللاواقع تماما أو في قلب الجحيم وربما في الاثنين معا في السأم ذلك الحنين النوستالوجي الظامئ إلى الزمن واستحالة اللحاق به والاندراج فيه والإحباط من رؤيته يتدفق، هناك في الأعلى فوق بؤسنا وشقائنا لقد خسرنا الأبدية والزمن.(سيوران، 2014، ص 34) فكلما آذانا الزمن ازددنا رغبة في الإفلات منه، لعل كتابة صفحة لا عيب فيها، لعل جملة وحيدة ترتفع بنا فوق الصيرورة ومفاسدها، نحن نتسامى على الموت عن طريق البحث عما لا يفنى من خلال الكلمة من خلال رمز الفناء

نفسه.(سيوران، 2015، ص 44) فالزمن أذية لكل أنا محشورة فيه والأنا السيورانية متهاوية فيه ولا تأبى هذا السقوط ... لذا يرى سيوران أنه لقد سقطنا بلا رجعة في الأبدية السلبية، هذا الزمن المبعثر الذي لا يؤكد نفسه إلا حين يُلغيها، هذه الماهية المختزلة في سلسلة من الدمارات وحصيلة من الالتباسات، هذا التمام الذي لا مبدأ له إلا في العدم ونحن نعيش ونموت في كل لحظة من لحظاته دون أن نعلم متى يكون لأنه في الحقيقة ليس كائنا البتة.(سيوران، 2010، ص 148)

يوضح الكاتب أنطونيو دي لاوري هكذا كان يبدو له العالم في صفحة من صفحات موجز التفكيك عنوانها في علية من علالي الأرض كانت تلك هي بالضبط وجهة النظر التي نظر من خلالها إميل سيوران إلى العالم في جميع كتاباته: من علياء "عليته" المتشامخة ما فوق التاريخ وما وراء الزمن أو ما دون الزّمن كما كان ليقول هو، نذير وبشير الإنسانية التي ما هي إلا ضحية لسقوط آدم وفقدان عدن من هناك كان يراقب سقوطا آخر جديدا وحاسما وجحيما في قرارة أبدية أحط وأدنى حيث لا مناص من أن يغوص في الرمال منهوكا وعقيما "المركب" الذي هو التاريخ. فالتراجيديا الحقيقية للإنسان هي فن في استحالة العودة إلى زمن الماضي وبلوغ عدم ما قبل الوعي.(سيوران، 2014، ص 13) كما أن الإنسان ليس راضيا بكونه إنسانا لكنه لا يعرف في أي شيء يمكن أن يتجسد ولا كيف يتقمص من جديد وضعا لم تعد له عنه أي ذكرى بيّنة، حنينه إلى ذلك الوضع هو جوهر كيانه وهو يتواصل بوساطته مع كل ما يترسب فيه من الأكثر قدما.(سيوران، 2018، ص 80)

رغم كل ما ألح السيد سيوران أن يبوح به من أفكار سوداوية عميقة وتشاؤمية وبثها في عالمه الخاص الذي يرمي تراكماته بعالمنا، إلا أننا نجد أن سيوران عاش مثله مثل أي إنسان ينتظر مصيره المشؤوم بلا هوادة فأفكاره كانت في منحى غير موازٍ لمنحى أفعاله فلم يكن الأمر هين على سيد الكآبة الذي تخبط ضمن صراع رهيب لمتناقضاته. في هذا يقول إيونفيانو:« ظل سيوران قرابة نصف قرن الشاهد على المعركة التي واجه فيها نفسه والقوى الخارجية للزمن والتي تولد الزمن في آن، لقد عاش وهو شاب يافع بعض حالات لمح أثناءها بعض "ما وراء" ولكنه حينما أدرك أن تلك النعمة قد ولت دون رجعة وإلى الأبد، سقط في كآبة مهولة وكان من المحتوم عليه اختلاف الحيل ليتمكن من الاستمرار في العيش وكان من أهمها ممارسة التّعصب والحقد، لئن تدم بعد ذلك وحاول تجريب الشّك والسّخرية فإن الغضب لم يفارقه إلا بعد أن نال منه الوهن والملل.»(زنار، 2009، ص 38)

خاتمة:

حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية أن نلم بأهم الأفكار والمفارقات الفلسفية التي نادى بها السيد سيوران فقد نقل إلينا تراجيديا وجوده الإنساني المأساوي المستمر على شكل شذرات متناقضة تفوح بالإعياء والأرق تارة وتنوح بقيد الانتحار اللامحدود والكآبة تارة أخرى ومتنامية مع قيم اللعنة حاملة بذور فنائها من خلال تمرده على حقيقة الولادة هاته الهزيمة التي كانت موطن الفشل وصياغتها في قالب فلسفي سوداوي عدمي تشاؤمي يتخطى اللايقين في الزمن وينحني ضمن اللاخلاص، فالحياة محاصرة ولا معنى لها ووجودنا لا قيمة له ولا حتى الموت حلّها، فكانت هذه أهم مفارقة وجودية

أساسية في نسق السيد سيوران من خلال الهوس العميق لمعرفة تلك "الأنا" الذات التي هي من أكثر المعارف مرارة، لحظة العيش بين وهمي العدم والوجود تريد الانفلات من سؤال اللماذا وُلدت؟ فلا توجد قضية يستحق أن يشنق الإنسان نفسه من أجلها حسب ألبير كامو، فحتى غاليلو والذي قاده كهنة الدين إلى المشنقة حين ادعى أن الأرض تدور تراجع عن رأيه حين تيقن أنه سيفقد حياته ،هي عذابات الحياة المقننة وإنه المساس بها يعمقها في محرج فلسفي دروبه ملغمة بما لا يستحق أن نرغب فيها، فمن ذا الذي سيدرك مدى جنونك وانفصامك مع كل الثبات والهدوء خارجك .

قائمة المراجع:

- جاميسون، ك. (2008). **عقل غير هادئ**. تر: حماد العيسى. ط 1. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- زنار، ح. (2009). **المعنى والغضب "مدخل إلى فلسفة سيوران"**. ط 1. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون. الجزائر: منشورات الاختلاف.
- سيوران، إ. (2003).**المياه كلها بلون الغرق**. تر: آدم فاحي. ألمانيا: منشورات الجمل.
- سيوران، إ. (2010). **تاريخ ويوتوبيا**. تر: آدم فاحي. بغداد. بيروت: منشورات الجمل.
- سيوران، إ. (2014). **لو كان آدم سعيدا**. تر: مُحَمَّد علي اليوسفي. ط 2. عمان: أزمنة للنشر والتوزيع.
- سيوران، إ. (2015). **مثالب الولادة**. تر: آدم فاحي. ط 1. بغداد. بيروت: منشورات الجمل.
- سيوران، إ. (2018).**اعترافات ولعنات**. تر: آدم فاحي. ط 1. بغداد. بيروت: منشورات الجمل.

- شنيدرس، ف. (2005). **الفلسفة الألمانية في القرن العشرين**. تر: محسن الدمرداش. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- عبد الستار، إ. (2002). **القلق قيد من قيود الوهم**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.
- عزت راجح، أ. (1968). **أصول علم النفس**. ط 7. القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
- مهران، م . مدين، م. (2004). **مقدمة في الفلسفة المعاصرة**. القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع.
- ناصر الدين، م. (2020). **إميل سيوران...الكتابة ثأرا**. جريدة الأخبار، 31 أكتوبر 2020. لبنان.
- ولبرت، ل. (2014). **الحزن الخبيث "تشريح الاكتئاب"**. تر: عبلة عودة. ط1. أبو ظبي: هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة.
- يوحنا، م ف. (2008). **سفر أيوب القديس**. القاهرة: دار نور للطباعة والنشر والتوزيع.